

ابن عساكر

في رحلة النابلسي

رياض عبد الحميد مراد

فعكة فنابلس فالقدس فالرملة واللد فعسقلان

فغزة. وهي آخر القسم الاول .

وانطلق الركب ثانية من خان يونس مبتدئا القسم الثاني في البلاد المصرية مارا بالعريش وبلبيس والقاهرة. وهناك يقيم ما يقرب من سبعين يوما وبها ينتهي القسم الثاني من الرحلة .

وأما القسم الثالث فينطلق من منزله قايتباي فالسويس متجها شرقا نحو البحر الاحمر ثم جنوبا مسائرا البحر الاحمر الى أن يصل الى ينبع وحينئذ يغير اتجاهه نحو الشرق ليصل الى المدينة المنورة فيقيم فيها حوالي تسعين يوما ثم يسير جنوبا الى مكة المكرمة فيبقى بها حوالي عشرين يوما يعود بعدها حتى يصل دمشق بعد أن يقضي ٣٨٨ يوما في رحلته الكبرى هذه .

-) -

قسم النابلسي (١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م) رحلته الكبرى المسماة (الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز) الى ثلاثة أقسام :
الاول : في الجولان في البلاد الشامية .
والثاني : في الاقبال على البقاع المصرية .
والثالث : في التشرف بالوصول الى الاقطار الحجازية .

بدأ رحلته في (١١٠٥ / ١) هـ - ١٦٩٣ / ٩ م بزيارة الجامع الاموي ومقبرة باب الصغير ومقبرة مرج الدحداح ثم مقام الشيخ محي الدين ثم انطلق من دمشق متجها نحو الشمال مارا بالنبك وحمص وحماه، ثم يتجه نحو مصياف فجبله فاللاذقية ، ثم يعود الى جبلة متجها نحو الجنوب الى طرابلس فبيروت

والحديث الشريف والعقائد والفقه والتجويد
والتاريخ والادب .

ويظن المرء أن وراء هذه المؤلفات الكثيرة
مكتبة ضخمة ورثها المؤلف عن أسرته ، ولكن
الواقع أن ذلك كله لم يكن وإنما كان نتيجة
تحصيل شخصي وجهد ذاتي وعصامية
فردية ، أما مكتبة أبيه وجده ، وقد كانا
عالمين ، فإنه يخبرنا أنها ضاعت أما بالسرقة
أو بالبيع (٢) . ولذلك فإنه يطير فرحا حين
يخبره نجم الدين الرملي ورفيقه شمس الدين
أنهما وجدا بشرحا لجده على الجامع الصغير
وديوانا لوالده (٣) .

والجميل في الامر أننا نشهد في رحلته هذه
ميلاد كتب ورسائل ولدتها الحاجة وأوجدتها
الظروف :

ففي القدس سألته مصطفى بن أبي الوفا
سؤالا عن التفضيل بين الانبياء فألف له
رسالة في الرد على سؤاله هذا أسماها :
(صفوة الاصفياء في بيان التفضيل بين
الانبياء) (٤) .

وفي مصر طلب منه زين العابدين البكري
أن يخمّس قصيدة والده محمد البكري
والمسماة (قبضة النور) والتي مطلعها :

قبضة النور من قديم ارتنا
في جميع الشؤون قبضا وبسطا

فقال النابلسي مخمّسا :

أيها الطلعة التي أخذتنا
بسناها عنا وقد أعدمتنا

والسؤال الذي يلحّ على البحث هنا :
ما قيمة هذه الرحلة ؟ لا من الجانب الجغرافي
فحسب بل من جميع جوانب الثقافة التي
كانت سائدة في عصر المؤلف .

وفي محاولتنا للإجابة على هذا السؤال
نلاحظ أن هذه الرحلة ضمت كل علوم عصرها
حتى استحققت أن تعطى صفة الموسوعية
لان المؤلف يهتم بكل ما يعرض له في طريقه
مما يراه بعينه فيصفه ، أو مما ينقله عن
كتب أخرى ، أو مما ينشده من شعره ، أو
مما ينشده من شعر غيره ، أو مما يسأل
عنه فيجيب عليه .

وعلى هذا فإن من يقرأ هذه الرحلة يجد
علوم عصر المؤلف كلها متجمعة فيها من أدب
ينثره وشعر الى تصوف الى فقه الى تاريخ
الى تراجم الى عادات اجتماعية الى جغرافية
الى كتب .

وسأكتفي في مقالي هذا بالحديث عن
جانب واحد من هذه الجوانب وهو الكتب ،
على أن أعود ان شاء الله لأعالج كل جانب
من هذه الجوانب في مقال مستقل .

ان هذه الموسوعة تبدو بشكل واضح في
مؤلفات النابلسي التي يعددها لنا في رحلته
هذه (١) ، وذلك بمناسبة حديثه عن اجازة
أجاز بها الشيخ رضوان بن يوسف الصباغ
المصري الدمياطي المفتي بثغر صيدا . وهي
تتجاوز الثلاث مئة كتاب بين رسالة ومجلد
وعدة مجلدات ، وتتنوع في فنها بين التصوف

ثم لما في معارج القرب فتنا

قبضة النور من قديم ارتنا

في جميع الشؤون قبضا وبسطا

ثم طلب منه أن يشرحها فشرحها في رسالة سماها (نفخة الصور ونفخة الزهور في الكلام على أبيات قبضة النور) (٥) .

- ٣ -

وحديث النابلسي عن كتب غيره لا يقل أهمية عن كتبه نفسه ، بل ان كل كتاب يسمع به أو يراه يحظى منه باهتمام زائد ، ينبع من حب العالم للكتب ، هذا الحب الذي جعله ينقل لنا أسماء كتب لم نسمع بها ولم نرها ، ومن هنا تنبع أهمية حديثه عن الكتب .

وسأنقل للقارئ الكتب التي ذكرها النابلسي متجاوزا نوعين من الكتب وهي كثيرة :

الاول : المصادر التي ينقل منها ويعتمد عليها في تراجمه وشروحه .

والثاني : الكتب المعروفة المطبوعة المتداولة كطبقات الشعرا وكتاب الرياض النضرة وشرح الرسالة القشيرية وشرح عينية بن مالك ابن سينا للمناوي وما الى ذلك .

ففي كتب الادب يذكر لنا شرحا للبردة لمحمد بن رضي الدين بن يوسف بن أبي اللطف المقدسي الذي وجده عند السيد هبة الله أفندي في حمص (٦) ، كما يذكر لنا أيضا رحلة للشريشي (٧) (٦١٩ هـ / ١٢٢٣ م) -

شارح مقامات الحريري - وقرأ فيها أن الشريشي مر على بغداد وحضر وعظ لابي الفرج بن الجوزي كما أنه دخل دمشق الشام والحرمين ، وأبدى النابلسي اعجابه من وجود خط والده على تلك النسخة ، ويذكر في اللغة رسالة في أسماء ثمر المدينة (٨) مرتبة على حروف المعجم لفتح الدين الزرندي ، وينقل لنا هذه الرسالة كاملة في رحلته .

ويطلعنا أحد أصدقائه في المدينة المنورة ، واسمه محمود الكردي ، على تفسير كبير له يقع في ثمان مجلدات ، ويريه المجلد الاخضر منها فيجده تفسيرا جامعا للاعراب والحكم والاحكام (٩) .

ورأى كذلك شرحا لحجازي الواعظ على الجامع الصغير للسيوطي ووصفه بأنه أكبر من شرح الشيخ المناوي وأعظم منه (١٠) . وطلب منه صديق في دمشق أن يفتش له عن كتاب الاحاديث القدسية للمناوي فوجده - بعد طول بحث - عند أحد الكتبة ، فأخضره وأمر أحد جماعته بكتابته (١١) .

وأراه زين العابدين البكري في مصر : « كتابا كبيرا جدا في مجلد واحد اسمه قانون الدنيا يذكر فيه مؤلفه ابتداء خلق الدنيا بالتفصيل ثم يذكر الاقاليم السبعة وما خرج عنها ويذكر البلدان جميعها وما اشتملت عليه من الاماكن والانهار والبحار ، ومن خرج منها من العلماء والشعراء وغيرهم ، ويترجمهم بذكر مصنفاتهم وفضائلهم ووفياتهم ومواليدهم الى غير ذلك مما

ذكرة» (١٢) وأخبره زين العابدين أن هذا الكتاب ليس الا نسخة واحدة فيما يعلم ذهب بها بعض الوزراء الى بلاد الروم استكتبها في مصر من نسخته .

وأهم كتاب ذكره النابلسي في رحلته هذه هو كتاب تاريخ ابن عساكر .

ففي المدينة المنورة يزور الحرم الشريف ويطالع على مكتبته وما فيها من نفائس المخطوطات ، ومن بين هذه النفائس يجد نسخة متفرقة الاجزاء من تاريخ مدينة دمشق ولنقرأ معا ان شئتم ما يقوله النابلسي في ذلك :

[٣٧٠ ب] « ٠٠٠ » وبتنا تلك الليلة حتى أصبحنا في يوم الثلاثاء تمام الثلاث مئة ، وهو اليوم الخامس من ذي القعدة ، فذهبنا وقت العصر الى الحرم الشريف ، وفتحوا لنا باب خزانة الكتب التي وقفها المرحوم السيد محمد البرزنجي الحسيني الشهرزوري المدني ، فوجدنا فيها كتبا كثيرة في علوم شتى ، منها الجامع الكبير في الحديث للجلال السيوطي رحمه الله في خمس مجلدات كبار ، ومنها جزء ثالث في مجلد ضخيم من شرح سنن ابن ماجه للشيخ الدميري رحمه الله تعالى ، ومنها تاريخ دمشق للمافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى ، والموجود منه غير المكرر ثلاثة وتسعون جزءا ، كل جزء مجلد على حدة ، نحو الثلاثة أو الاربعة كراريس بالقطع الكامل [١٣٧] وهي أجزاء متفرقة منها الجزء الاول والجزء الاخير ، ومنها ما هو بعد المئة وما بعد المئتين وبعد الثلاث مئة وبعد الاربعة مئة وبعد الخمس مئة ، وجملة مجلدات أجزاء الكتاب خمس مئة وسبعون مجلدا . قال في المجلد الاخير : تم الجزء السبعون والخمس مئة وهو آخر

الاجزاء جميعها وهذا آخر ما تيسر جمعه من هذا الكتاب والله الموفق فيه للرشاد والصواب . وقال في ابتداء الجزء الاول بعد البسملة : الحمد لله خالق الارواح ٠٠٠٠ » ثم ينقل مقدمة الجزء الاول نقلا حرفيا .

ولن أقف عند المعلومات الجانبية التي مرت في هذا النص ، من مثل معرفة مؤسس مكتبة الحرم الشريف ، والاطلاع على كتب أخرى منها ما هو مخطوط ومنها ما هو ضائع . وانما الذي يهمني هنا هو تاريخ ابن عساكر دون غيره . وهو يثير في أذهاننا نقطتين وهما : تجزئة هذه النسخة أولا ومكان وجودها ثانيا .

ولئن أغفل النابلسي ذكر الناسخ أو تاريخ نسخه الا أنه ذكر لنا شيئا لا يقل أهمية عن ذلك وهو تجزئة الكتاب ، فقال انها في خمس مئة وسبعين مجلدا .

والمعروف أن القاسم ابن المصنف قد نسخ نسخة اعتمد فيها على ما كتبه أبوه وجعلها في خمس مئة وسبعين جزءا ، وهي نسخة واحدة ووحيدة . والنسخ التي جاءت بعدها حملت تجزئات أخرى . أما التجزئة الى خمس مئة وسبعين جزءا فلم تكن الا في النسخة الاولى نسخة الابن .

وليست نسخة الحرم الشريف هذه هي نسخة الابن الثانية لان تلك كانت في سبع مئة جزء وهذه في خمس مئة وسبعين جزءا . كما أنها ليست نسخة البرزالي لسببين : الاول التجزئة التي تحدثنا عنها نظرا لان

الصغيرة الكثيرة ، وهي نسخة الازهر ، والمعروف أن نسخة الازهر هذه قسمان : قسم بخط القاسم والقسم الثاني بخط البرزالي ، فاذا استبعدنا خط البرزالي ، يتبقى لدينا بضع مجلدات وأجزاء صغيرة مجلدة كل جزء على حدة ، وبشكل يتتابع أحيانا ولا يفعل في أحيان أخرى .

فهل هذه نسخة الحرم أم هي متممتها ؟ فاذا كانت هي هي نسخة الحرم فانه لم يضع علينا شيء وان كانت متممتها ، وهذا ما أرجحه بسبب وجود الجزء الاخير في نسخة الحرم وخلو نسخة الازهر منه ، فاننا نأمل أن نعثر على نسخة الازهر هذه ليصبح العمل في تحقيق التاريخ سهلا يسيرا بعد توافر نسخة أصل خالية من الخطأ والبتـر والتحريف .

البرزالي نقل عن النسخة الثانية لا عن الاولى ، والسبب الثاني أن خطها المغربي مميز لو رآه النابلسي لشار في حديثه عن النسخة الى شيء من ذلك .

وهي ليست كذلك احدى نسختي الظاهرية اللتين كتبنا بأمر من سليمان باشا العظم وأسعد باشا العظم والي دمشق لسبب بسيط هو أن احدى هاتين النسختين كتبت سنة ١١١٨ هـ أي بعد رحلة النابلسي بما يقرب من ثلاثة عشر عاما ، والثانية كتبت سنة ١١٢٧ هـ أي بعد الرحلة بما يقرب من اثنين وستين عاما .

فنسخة الحرم اذن ليست الا نسخة القاسم الاولى التي قرأها على أبيه في مجالس خاصة وذلك بعد أن نقلها من مسودات أبيه . فاذا صح هذا جاز لنا أن ننتقل الى النقطة الثانية وهي : أين هذه النسخة ؟

ان الفهارس الصادرة عن المملكة العربية السعودية ، وبخاصة فهرس مكتبات المدينة المنورة لا تبين عن وجود نسخة ابن عساكر هذه لا في المدينة المنورة ولا في المملكة كلها ، وكل ما وصل الينا منها جزء صغير فيمن اسمه خالد ورد من الرياض ، أما هذه الاجزاء الكثيرة فاننا لا نعرف عنها أي شيء .

وأما في مكتبات العالم فعندنا نسخة تشبهها كثيرا في تجزئتها وفي عدد أجزائها

- (١) انظر الورقة ٨٠ ب - ٨٢ ب من نسخة الظاهرية ذات الرقم ٢٢٢٦ وساعتمد في كل اهااتي التالية .
- (٢) الورقة ١٠٢ ا
- (٣) الورقة ١٠٢ .
- (٤) الورقة ١١٦ ا و ب
- (٥) الورقة ١٨٦ ب .
- (٦) انظر الورقة ١٦٢
- (٧) الورقة ٢٤٢ ب
- (٨) الورقة ٢٢٤ ا و ب
- (٩) الورقة ٢٢١ ا
- (١٠) الورقة ٢٤١ ا
- (١١) الورقة ١٩٢ ا
- (١٢) الورقة ٢٢٢ ب - ٢٢٣ ا